لغـــة البهائم . . . . !

للأستاذ عماد الدين عبد الحميد
المحقق القضائى بالآثار

كانت العربة البخارية – كما يسمونها – تسير بنا ، فلا تقطع الأرض قطعا أو تنهبها نهبا – كما يقولون – وإنما كانت كأنما تمعن فى أن تشعرنا بالملل ، فتسير الهوينى ، وتقف عند كل محطة فى الطريق إلى ضاحية ما من ضواحى القاهرة ، ضاحية كتب عليها أن تظل حالها دائما مثار الشكوى من أهلها ... والذى يقوله الناس إن حالها تبقى كذلك ، لأن فى بقائها كذلك راحة واطمئنانا وسببا من أسباب اليسار لضاحية أخرى !

كانت العربة البخارية تسير بنا هكذا ، ويزيد فى مللنا اضطرارنا اضطرارنا إلى أن ننفض عن وجوهنا ، وعن ملابسنا ، وعن مقاعدنا ، حبيبات الفحم التى توزعها الآلة البخارية عدلا من مقدمة العربة على جميع الراكبين فى الدرجتين الأولى والثانية على السواء. وحبيبات رمال الطريق الصحراوى التى توزعها عدلا كذلك نوافذ العربة البخارية التى لم يقدر لها – أو لنا – منذ عرفناها ، أن تكون عند الحاجة محكمة الإغلاق !

وكان يجلس أمامى أديب معروف من كتاب الشباب وشعرائهم وهو أحد محررى هذه المجلة ، يحاول أن يخرجنا من أسر الملل بنقداته الطريفة للعربة التى تحملنا على الرغم منا ، ولو استطعنا نحن أن نحملها لنعجل بالوصول إلى حيث كنا نرغب فى أن تصل لما ترددنا جميعا !

وكنا نجد فى نقــدات صديق الأديب عزاء – إلى حد ما – فى أوقاتنا الضائعة ، وراحتنا الضائعة ، وملابسنا الضائعة ، حتى إذا ما كانت العربة البخارية بنا عند محطة ما فى الطريق ، أخرجنا عن الملل وأثار انتباهنا صوت قوى صارخ من شاب كان يجلس قريبا منا ، يرتدى رداء رجال الجيش ، وتميزه "نجمة" فوق كتفه ، فتحدث بأنه ضابط شاب فى رتبة الملازم الثانى ، عرفت فيما بعد بأنه من ضباط جيشنا ، الذين انضووا تحت لواء العسكرية من بين الموظفين ، فدربوهم على الأعمال العسكرية شهورا ، ولقنوهم من الثقافة العسكرية دروسا ، ثم منحوا حاملى شهادات "البكالوريا" منهم "نجمة" ... ومنحوا حاملى الشهادات العالية "نجمتين" .

ارتفع صوت هذا الضابط الصغير صارخا بعبارات لم أكن أريد أن أصدق أنها تصدر عن انسان وصلت به ثقافته إلى أن صار ضابطا فى الجيش... وارتفع هذا الصوت صارخا فى انسان ميزته بعد لحظة ، فإذا هو جندى من جنود حراسة المحطة ، الخاضعين لإشراف وملاحظة حضرة الضابط المحترم !

كان طبيعيا أن نميز بعض العبارات الصادرة عن حنجرة الضابط ، أو كل تلك العبارات ، فنذكر منها قوله : " انت يالوح يا ابن اللوح " و " إنت يا كلب يا ابن الكلب " و " إنت يا كذا يا ابن كيت " وغيرها من العبارات التى يلزمنى عند ذكرها أن أردفها فى حديثى بكلمة " الأبعد " ، لخروجها عن أصول اللياقة فى علاقة الإنسان بغيره من بنى آدم . . . وعن أصول الكرامة اللازم توافرها وشعور الإنسان بها نحو نفسه كانسان !

كان طبيعيا أن نميز هذه العبارات ، وكان محتوما أن يشغلنا أمرها عما كنا فيه من حيث صديق الأديب . فنتنبه جميعا إلى قصة هذه العبارات .

وعندها علمنا أن حضرة الضابط لاحظ على الجندى ارتكابه مخالفة ما ، لا أريد أن أخالف الضابط فى أنها مخالفة خطيرة ، وأنها تستوجب اللوم الشديد والتأنيب الكبير والعقاب الصارم والجزاء الرادع ، حتى لا تتكرر من الجندى هى أو مثيلتها من المخالفات . ولكنى خالفته من الوهلة الأولى فى أنها تسمح هى أو غيرها من المخالفات بأن يخرج حضرة الضابط عن شعوره أو يفلت منه ميزان ضبط عواطفه ، فيفوه بعبارات منحطة ، وألفاظ من السباب عريقة الصلة بالصفات الوضيعة ، التى أربأ بمثل حضرة الضابط أن يقبل نسبتها اليه !

خالفت حضرة الضابط فى هذا من الوهلة الأولى ، وكنت أود أن أعلن له مخالفتى صراحة ، لولا أن الأخلاق والكرامة والشعور البشرى لم تفقد من صارح الضابط بمثل ما كنت أريد أن أصارحه به .

فكنت — كما كان الناس جميعا — فى شغل عن مضايقات العربة البخارية بحديث جديد بين الضابط وبعض الراكبين ، حديث هو درس قيم لا أشك فى أنه سيبقى فى ذهن هذا الضابط ما بقى ... ويا حبذا لو كان قد تسنى أن يلقى هذا الدرس على جميع الضباط وعلى الناس أجمعين ، لا لأن جميع الضباط والناس يفعلون مثل ما فعل هذا الضابط ، ولكن لأن فى الناس وفى الضباط كثيرين ممن يفعلون .

حاول الضابط كثيرا أن يقنع الناس بأنه معذور فيما فعل ، وأن هذه وحدها لغة التفاهم

ور بما كان هذا لأنهم يعتقدون بحق أن التعليم لا يلقن بالجهل، وأن الأخلاق لا تربى بسوء الأخلاق ، وأن النظم لا تطبق بالفوضى . . .

ور بما كان هذا لأنهم يعتقدون بحق أن هـذا الجندى إنسان كالضابط سواء بسواء، وأنه لولا الرداء الناعم ذو النجمة ... والرداء الخشن بغير النجمة ، لما استطاع الضابط أن يفعل مثل ما فعل لأى سبب من الأسباب .

ولما سئل حضرة الضابط : لماذا لا ينزل ويتأخر للقطار التالى ، حتى ينهى حسابه القانونى مع الجندى، فى غير ضجة أو تظاهر بسلطان الرياسة بين الناس، احتج بأن الحادث وقع فى أثناء راحته من العمل ، وليس مسئولا أن يعمل فى أثناء راحته !

وقد سمعت حضرة الضابط يحاول إقناع الناس بأنه فعل خيرا ، إذ الجندى مسكين والضابط رحيم ... وسيكتفى حضرته بهذا السباب فلا ينزل بالجندى جزاء شديدا ... وهو يعتقد أنه بهذا يصلح الجندى وينزل به رحمته !... وكنت أرجو لو قال له محدثه، إنه بهذا لا يصلحه ولا يرحمه ، لكنه يفسده ويشتد فى القسوة عليه .

فهو يميت فيه الشعور بالكرامة حين يعوده قبول الشتائم، ويقتل فيه الخشية من الجزاء حين يعلم أن عاقبة الاهمال شىء من السباب ، وهو يعرضه مستقبلا لأن يعاود الإهمال والمخالفة فيقع يوما ما فى شر كبير .

والذى أراه أن الضابط صادق فى أنه لن ينزل بالجندى بعد هذا جزاء شديدا، ولكنى لا أستطيع أن أعلل هذا بالرحمة ، فمثل الذى سمعت منه ما ذكرت لا أتصور كيف يكون فى قلبه لون من ألوان الرحمة تجاه مثل ذلك الجندى .

والذى كنت أرغب أن ينبه هذا الضابط أخيرا إليه — ولعله يعلمه — هو أن بين جنود القوة ، التى هو ضابط فيها ، كثيرين من الحاصلين على شهادة " البكالوريا " التى سمحت بمنحه النجمة التى تزين كتفه ، وتزيد رداءه أبهة ... ، ولا يفرق بينه وبين هؤلاء إلا أنهم حين جاء دورهم فى الخدمة العسكرية ، كان هو موظفا ولم يكونوا هم من الموظفين ؛ فتقدم لهذه الخدمة فكان ضابطا ، وطلبوا هم — وعجزوا عن دفع جنيهات قيمة البدل العسكرى — فكانوا من الجنود !

كنت أرغب فى أن ينبه هذا الضابط إلى هـذا ، وكنت سأفعله ، لولا أن الدرس الذى كان يلقيه غيرى عليه لم ينته قبل أن نفترق كل إلى سبيله . فأشار علىّ صديق

أفعل ، عسى أن يكون فيها شيء من التوجيه الذى يجب أن يوجه إليه الناس أجمعين ، حتى يفهموا أن المسئولين اليوم عن تأخر عقليات جمهور الشعب ، الذى يسمونه "البهائم"... ؛ ليسوا هم "البهائم" ... ؛ وإنما المسئولون حقا هم المثقفون .

هم الذين يحتلون مراكز الرياسة والقيادة فى كل عمل صغير أو كبير . هم الذين أعطتهم الأيام نصيبا من السلطان — عظم هذا النصيب أو حقر — فلم يرضوا غيرهم إلى حيث هم ، ولكنهم هبطوا بأنفسهم ، وبمستقبل الأجيال ، إلى الحضيض ... بدعوى أن هذه وحدها طريق تعليم " البهائم "... ، ولغة التفاهم مع غيرهم من الذين حرمهم الدهر — أو الناس — نصيبهم الحلال ، من الجاه والعلم والسلطان ...

كم نحن فى حاجة إلى أن نزن أقدارنا بميزان صحيح ، وأن نحفظ بين الناس ما لنا من مقدار ... !

عماد الدين عبد الحميد

من أخلاق المسيح عليه السلام

يروى أن المسيح عليه السلام كان يجلس مع بعض الحواريين فمر بهم خنزير ، فأشار إليه بيده قائلا : " اذهب ياهذا " ! وظن بعض تلاميذه أنه يجهل اسمه فيكتفى بالاشارة إليه . فقال : "إن اسمه خنزير" فقال عيسى عليه السلام : "إننى أعرف اسمه ولكنى أكره النطق به خشية أن يعتاده لسانى ، فأخاطب به — فى حالة غضب — بعض بنى الانسان" !